السعادة الحقيقية
في
طاعة ربِّ البرية

جمع:

أ. هيفاء بنت عبدالله الرشيد

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء:١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

إن الحياة الطيبة السعيدة، والعيشة الهنية الرضية، مطلب مهم، وغاية عظمى، يسعى إلى تحقيقها البشر، وتطمح إلى تحقيقها وبلوغها الأفئدة، والسعادة في الحياة هدف سامٍ ينشده كل الناس ولأجل هذا تعددت وسائل الناس، وتنوعت أساليبهم وأفهامهم في البحث عن السعادة، والعيش في ظلالها، إلا أن كثيراً من الناس قد أخطأ الطريق، وزل بهم الفهم، في إدراك معنى السعادة الحقة، وتحقيق الحياة المطمئنة التي يرغب فيها، ويسعى إلى بلوغها، والسبب لأنه لم يسلك الطريق الذي رسمه الله تعالى في كتابه، ووضحه رسوله ﷺ في حياته وسنته لنيل السعادة وتحقيقها.

فكل إنسان في هذه الحياة يسعى ويتحرك بغية البحث عن السعادة.

فما معنى السعادة؟

السعادة كلمة خفيفة على اللسان، حبيبة الى قلب كل إنسان، وهي مطلب جميعِ الناس، المؤمنِ والكافر، الصالحِ والفاجر، الغني والفقير، القوي والضعيف، كلهم يريدون السعادة، فما من إنسان إلا وهو يسعى ويتحرك بغية البحث عن السعادة وتحقيقها في حياته، حتى تنوّعت وسائل الناس في تحقيق هذه الأمنية العظيمة.

فأكثر الناس يظنون، بل يعتقدون أن السعادة في المال وجمعه وتكديسه.

والضعيف يرى سعادته في صحة بدنه وقوة جسمه وسلامة أعضاءه.

والذي لم يرزق الأولاد، يرى سعادته في كثرة الأولاد واتساع العشيرة والذرية التي تَقر بها عينه وتخلفه من بعده.

والعاطل يراها في وظيفة وراتب يكفيه هم الحياة.

والذي لم يتزوج يرى السعادة في زوجة ذات نسب ومال وجمال.

والتي لم تتزوج تراها في زوج تسكن إليه ويسكن إليها.

والطالب يراها في تأمين مستقبله.

والبعض يعتقد أن السعادة في أن تكون له وجاهة في المجتمع.

ومنطق البعض من الناس أن السعادة تكون في التحكم والسلطة.

وأبشع من هؤلاء جميعاً وأشنع وأحط درجة؛ من ظن أن السعادة في المخدرات والمسكرات والفواحش والمنكرات، من ظن أن السعادة في السياحة والملاهي والكسل والتراخي، من ظن أن السعادة في البعد عن التكاليف والهروب من مشاكل الحياة ومسؤولياتها، من ظن أنه لن يكون سعيداً إلا إذا تمكن من تحقيق رغباته وشهواته ولو سعى لها بكل طريقة ووسيلة حتى وإن كانت تغضب رب البرية.

هؤلاء في الحقيقة مغبونون واهمون مساكين، حياتهم حياة الشهوات حياة الغفلة والملذات، بل حياتهم حياة الجحيم والتعاسة والشقاء، لأنهم جعلوا ثقتهم فيمن لا أمان فيه، وتعلقوا بمن يقودهم إلى طريق الهلاك.

فالذين يظنون أن السعادة موجودةٌ في المال أو في الجاه أو الوظيفة أو الزوجة الحسناء أو الصحة أو القوة أو في متع الحياة الزائلة، ما علموا أن الدنيا بكل ما فيها وإن اتسعت لصاحبها أو ضحِكت في وجه ناظرها، فإنما هي ظل زائل، هي مُنغصات سُرعان ما تتكدر وتزول، كيف لا، وقد قال ربنا سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]، فهذه المتع التي فرحوا بها في الدنيا، وامتدت لهم سنين، ماتوا وتركوها لغيرهم، وما أغنتهم عما كان ينتظرهم في الآخرة.

فالمال يكرمك إذا بذلته في الخير والنفع والصلاح، ويُهينك إذا بخلت به وكدسته أو بذلته في الشر والفساد، المال إذا لم تستخدمه في طاعة الله يكون في الآخرة وبالاً عليك، قال ربنا ﷻ: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

منصبك قد تزاح منه، بل المنصب لن يدفع عنك ضمّة القبر.

الأهلُ والأولاد هم أول من يهيل التراب على جسدك لما توضع في قبرك، الصحة القوة الفتوة أيها الشاب، الجمال أيتها الفتاة، إن لم تُذهبهم الأيام والزمان، ففي القبور ستفسدهم الديدان.

نماذج من طلب السعادة بغير هدي الله ورسُلِه

لقد طلب السعادة أقوام على مر العصور بطرق متعددة، ليست على هدي الله وهدي رسله عليهم الصلاة والسلام، فكانت بعض هذه الطرق سبباً لدمارهم وهلاكهم، فهذا فرعون أعتى من عرفته البشرية تكبراً وتجبراً على الله، ينعم الله عليه بأعظم النعم، فيرزقه ويطعمه، ويعطيه ملك مصر، ويجري له الأرزاق والأنهار، فيخاطب من استعبدهم عقوداً من الزمان بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ فكان عاقبة هذا العتو والتكبر على الله الشقاء واللعنة والهلاك: ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾.

وهذا قارون يمنحه الله كنوزاً كالتلال، تنوء بحمل مفاتحها الأثقال، ما جمعها بجهده ولا بذكائه، ولا بعرقه وعبقريته، بل بفضل الله ونعمته عليه، وقد حذره الله من الكفر والفساد، والتكبر على العباد، فلما عتا عما نهاه الله عنه، حرمه الله الحياة السعيدة المطمئنة، فقال سبحانه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾.

وهذا الوليد بن المغيرة يرى السعادة والحياة في تكثير الأموال والأولاد، فيرزقه الله مالاً ممدوداً وأبناء كثراً، فيكفر بنعمة الله عليه، ويعصي رسوله ويستهزئ به، فيكتب الله عليه الشقاء في الدنيا والآخرة، ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾.

وغيرهم أمم وأقوام في الماضي والحاضر، طمس الله على أفهامهم، وختم على قلوبهم، فلا يزالون يطلبون السعادة بغير طرقها الصحيحة، فما يلبث سعيهم أن ينقلب عليهم حسرة وندامة وشقاء وتعاسة.

فكل الناس رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، يبحثون عن السعادة، والكل يتمناها، ولكن الكثيرون يخطؤون الطريق إليها.

فالسعادة ليست سلعة معروضةً في الأسواق تُباع وتُشترى، ليست سلعة يشتريها الأغنياء، ويُحرم منها الفقراء، السعادة ليست في وفرة المال وتنوع الممتلكات، ولا سطوة الجاه، ولا في كثرة الولد، ولا في براعة الجمال، ولا في قوة البدن والعضلات، ولا بالتمكن من الشهوات، مع الغفلة عن حق رب الأرض والسماوات؛ بل هي صفاء في النفس، وطمأنينةٌ في القلب، وانشراح في الصدر، وراحة في الضمير وهدوءٌ في البال.

والسعادة ليست في تقليد المشهور الفلاني أو المشهورة الفلانية، تقليدها في لبسها أو تقليدها في كلامها أو أفعالها وتصرفاتها.

السعادة لا تُرى بالعين، ولا تقاس بالكم أو بالعدد ولا تُشترى بمال الدنيا، ولا يملك بشر أن يعطيها، كما أنه لا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها، ولكنها سلعة ربانية، هبة منحة إلهية يهبها الله من شاء من عباده جزاءً من ربك عطاء حساباً.

السعادة الحقيقية

إنّ العبدَ المسلم الذي يبحث عن سعادةٍ في القلبِ ورَاحةٍ في النفس يجد ذلك في طاعَتهِ لربهِ، وامتِثالهِ لأوامرِه، وبُعدهِ عن معاصيهِ؛ فقلبُ المسلم يَحنُّ ويشتاقُ للعبادةِ أكثر من حنينه لمتع الدنيا الزائلة، وبطاعة العبد وإيمانه وتقرّبه من الله سُبحانه يتعلّق قلبه به حتى يُصبح حب الله هو أسمى غاية، وأعظم رغبة يسعى لها العبد، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

إنّ الطاعة لله سبحانه وتعالى وعِبادته، وحسن القرب منه ليست كَلمات تُقال، وإنّما هي عَملٌ وسلوكٌ يُترجَم على أرضِ الواقع، ويَظهرُ أثره في الكون والحياة، فليس للعبدِ طريقاً أنفع، وأهدى من طريق الهداية، ولا أوصل للسعادة والبهجة إلا بها.

والمسلم بما آتاه الله تبارك وتعالى من بصيرة بدينه ومعرفة بهدى ربّه جلّ وعلا يدرك أن سعادته بيد الله وأنه لن ينالها إلا برضا الله سبحانه وتعالى، وهذه جملة مختصرة تغني عن كلام مطول، يدرك أن سعادته بيد الله وأنه لن ينالها إلا برضا الله سبحانه وتعالى. قال جلّ وعلا: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ **[طه: ١٢٣]**، ونفي الضلال فيه إثبات الهداية ونفي الشقاء فيه إثبات السعادة. وقال تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ **[طه: ١ – ٢]**، أي: بل أنزلناه عليك لتسعد.

فالسعادة بيد الله ولا ينالها العبد إلا بطاعة الله تبارك وتعالى، ومهما بحث الإنسان عن سعادة نفسه في غير هذا السبيل فلن يحصل إلا الشّقاء والنّكد والنّصب والتعب وسوء الحال وضياع الأوقات في غير طائل.

إن السعادة الحقيقية، والحياة الهانئة المطمئنة إنما تكون بالإيمان بالله تعالى وطاعته.

السعادة الحقيقية تكمن في طاعة الله سبحانه وطاعة نبيه ﷺ، في الإيمان والعمل الصالح، ودليل ذلك قوله جل وعلا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ **[النحل: ٩٧]**.

السعادة، الحياة الطيبة الهنية في الاستجابة لله ولرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

السعادة في الدنيا وبعد الممات، إنما تكون في اتباع دين وشرع رب العالمين: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

سعادة القلوب وانشراحها في ذكر الله والإقبال عليه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

هذا طريق السعادة، من سلكه شرح الله صدره، ويسر أمره، وأذهب همه، وكشف غمه وسدد قوله، وبارك له في عمره ووسع له في رزقه.

وطاعة الله سبحانه وتعالى هي الالتزام بأوامره وتطبيقها، والاهتمام بشرع الله؛ والإيمان بالله لا يصح إلّا بطاعته.

وكثير من الناس يخطؤون هذا الطريق، ويَضِلون عن سواء السبيل، وذلك بسبب إعراضهم عن السبب الرئيسي للسعادة، بل بسبب إعراضهم عن السعادة نفسها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤] فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس وأكل ما شاء وركب ما شاء وسكن حيث شاء، ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، لماذا يُحشر يوم القيامة أعمى؟ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾، لأنه تعامى وأعرض عن ما فيه سعادته في الدنيا، فأعماه الله عن السعادة الحقيقية العظمى في الآخرة، ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.

فالطاعة سبب في الرضا، والرضا أصل كل سعادة ومع هذه السعادة بركة، بركة في كل شيء في الرزق وفي العمر وفي الأولاد وفي الزوجة وفي كل شيء وليس لها نهاية أو أنها يأتي عليها يوم وتنتهي، فهو سبحانه يملك مفاتيح كل شيء ومنها السعادة والبركة.

وجد السعادة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حين كاده قومه فألقوه في النار، فلجأ إلى الله يدعوه ويتوكل عليه، وهو يقول: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾،

ووجدها نبي الله أيوب عليه السلام على ما به من ضر وبلاء عظيم، فعاش مع الله سبحانه في شدته وبلائه، وهو يناجي ربه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

ووجدها نبي الله يونس عليه السلام وهو في ظلماتٍ ثلاث: في بطن الحوت، في ظلمة اليم، في ظلمة الليل، حين انقطعت به الحبال إلا من الله تعالى، وتمزقت الأسباب إلا من الله وبالله؛ ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ووجدها نبينا محمّد ﷺ، وقد آذاه قومه، وحاربوه، ونالوا من عرضه وأدموه، وأخرجوه وطاردوه، وهو يقول لأبي بكر في إيمان وثبات، وراحة واطمئنان: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

سعادة خاصة للمؤمن الصالح

وهناك سعادة خاصة للمؤمن الصالح الذي أفنى حياته في طاعة رب العالمين، فهذا له موعد خاص مع السعادة عند مماته وبعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

تأملوا ما في هذه الآية، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فهذه أول بشارة من بشائر السعادة الأخروية، أن الملائكة تتنزل عليهم عند موتهم وتطمئنهم، وتنهاهم، ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ لا تخافوا فيما تستقبلونه، ولا

تحزنوا على أي شيء سيفوتكم من هذه الحياة، لأنكم ستجدون عند الله أعظم وأحسن منه، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، إنّها البشارة العظمى، بشارة لك أيها المؤمن عند الممات، البشارة بالجنة، فتطير روحك شوقا إلى ما عند الله، وفرحا بما أعده الله لك، إنها والله للسعادة الحق، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، السعادة الكبرى عندما تأخذ كتابك باليمين، وتصيح أمام العالمين، ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]، السعادة عندما تُثْقل موازينك بالحسنات، وتمشي فوق الصراط إلى الجنة، وتنظر إلى قصورك فيها، وترى الأنهار تجري من تحتها، كما قال ربنا في الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١).

وأعظم سعادة لأهل الجنة كما جاء في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(٢).

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(٣).

وهذا لن ينال إلا بالطاعة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) متفق عليه.

آيات عن طاعة الله سبحانه وتعالى

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٢-٥٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [التغابن: ١٢].

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

شروط الطاعة النافعة

والطاعة نافعة شافعة إذا اجتمعت فيها أمورٌ:

الأمر الأول: الإخلاص فيها؛ بأن تريد بها وجهَ الله، لا رياءً ولا سمعةً.

الأمر الثاني: أن تكون الطاعةُ على هدي النبيِّ مُحَمَّد ﷺ وسُنَّتِه.

الأمر الثالث: أن تَسْلَمَ هذه الطاعةُ من الْمُبْطِلَاتِ.

الأمر الرابع: المداوَمة على الطاعة، كما قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، قال المفسرون: اليقينُ هو الموتُ؛ لأنه موقَن به[١].

الصبر على طاعة الله

والطريق إلى الله تعالى مليئة بالعوائق؛ لأن النفس بطبعها تنفر من القيود، والعبودية لله قيد لشهوات النفس؛ ولذلك فالنفس لا تستقيم على أمر الله بيسر وسهولة، فلابد من ترويضها، وكبح جماحها، وهذا يحتاج إلى صبر.

قال تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾.

وقال جل ثناؤه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾.

والصبر على الطاعة يتكون من ثلاث شعب:

الأولى: صبر قبل الطاعة بتصحيح النية، والإخلاص، والتبرؤ من شوائب الرياء، قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، فقدم الله سبحانه وتعالى الصبر على العمل.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/٣٩٧).

الثانية: الصبر حال الطاعة حيث لا يغفل عنها أثناء تأديتها، ولا يتكاسل، فيأتي بها على أكمل وجه مشروع متّبعاً ما بيّنه الرسول ﷺ حذو القُذَّة بالقُذَّة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

الثالثة: الصبر بعد العمل، فلا ينظر لنفسه بعين العجب، فيتظاهر بما قدَّم سمعةً ورياءً؛ لئلا يحبط عمله ويبطل أجره، ويمحو أثره.

والصبر على الدعوة إلى الله من أعظم الطاعات؛ فإن الدعوة إلى الله سبيلها طويل، تحف به المتاعب والآلام، وذلك أن الدعاة يطلبون من الناس أن يطلِّقوا أهواءهم، وينحروا أوهامهم، ويثوروا على شهواتهم، ويقفوا عند حدود الله أمراً ونهياً.

ثمرات طاعة الله

ونستطيع أن نوجز ثمرات طاعة الله تعالى في الأمور التالية:

١- أنَّ الله يدافع عن المؤمنين الصادقين:

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

قَالَ ابن كثير رحمه الله: "يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ "(١).

٢- اللهُ ينصر المؤمنين على أعدائهم:

قَالَ سبحانهُ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

(١) تفسير ابن كثير (٤٣٣/٥).

مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

قَالَ ابْن جرير الطبري رحمه الله: "﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ عَلَى أَعْدَائِكُمْ. قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ يَعْنِي قَلِيلُونَ، فِي غَيْرِ مَنَعَةٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى أَظْهَرَكُمُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ، وَأَنْتُمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنْكُمْ حِينَئِذٍ، فَإِنْ تَصْبِرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ يَنْصُرْكُمْ كَمَا نَصَرَكُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، قَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَاتَّقُوا رَبَّكُمْ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ. قَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يَقُولُ: لِتَشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَإِظْهَارِ دِينِكُمْ، وَلِمَا هَدَاكُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ مُخَالِفُوكُمْ"(١).

٣- استغفار الملائكة للمؤمنين:

قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

قَالَ ابْن جرير الطبري رحمه الله: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ عَرْشَ اللَّهِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَنْ حَوْلَ عَرْشِهِ، مِمَّنْ يَحُفُّ بِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، يَقُولُ: يُصَلُّونَ لِرَبِّهِمْ بِحَمْدِهِ وَشُكْرِهِ. قَوْلُهُ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: وَيُقِرُّونَ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَيَشْهَدُونَ بِذَلِكَ، لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. قَوْلُهُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَيَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَغْفِرَ لِلَّذِينَ أَقَرُّوا بِمِثْلِ إِقْرَارِهِمْ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ ذُنُوبَهُمْ، فَيَعْفُوهَا عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ فَاصْفَحْ عَنْ جُرْمِ مَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ بِكَ مِنْ عِبَادِكَ، فَرَجَعَ إِلَى تَوْحِيدِكَ، وَاتَّبَعَ أَمْرَكَ وَنَهْيَكَ"(٢).

٤- التسليم والرضا التام بما قدره الله تعالى على المسلم.

٥- حصول البركة في الأولاد والأموال. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٦٩/٧).

(٢) تفسير الطبري (٣٥٤/٢١).

٦- ضمان الأمان من الخوف يوم القيامة. قال سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

٧- الفوز بالجنة. قال سبحانهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

قَالَ ابْن جرير الطبري رحمه الله: "إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَرُّوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ كُتُبِهِ وَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ، كَانَتْ لَهُمْ بَسَاتِينُ الْفِرْدَوْسِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾: لَا يُرِيدُونَ عَنْهَا تَحَوُّلًا"(١).

الأسباب المعينة على طاعة الله عز وجل

إنَّ مما يعين على طاعة الله وعباداته أمور:

الأول: العلم بالله تبارك وتعالى وبما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام وما دلت عليه أسماؤه الحسنى وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة فإنه لا بد أن يعلم أن الله يثيب على طاعته ويعاقب على معصيته كما شهد به القرآن.

وهذا العلم العظيم إنما يؤخذ عن طريق الرسل بما أوحاه الله إليهم وما أنزله من كتب قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ وأعلم الناس بالله هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهذا هو العلم الحقيقي اليقيني الذي لا ترد عليه الشكوك والأوهام والاضطراب والحيرة.

الثاني: محبة الله تبارك وتعالى وطلب الأسباب التي تؤدي إلى محبته عز وجل وقد ذكر ابن القيم رحمه الله الأسباب التي توجب محبة الله وبعضها ذكر قبل فقال:

"فَصْلٌ فِي الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَحَبَّةِ، وَالْمُوجِبَةِ لَهَا وَهِيَ عَشَرَةٌ:

---

(١) تفسير الطبري (١٨/١٣٠).

أَحَدُهَا: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ، كَتَدَبُّرِ الْكِتَابِ الَّذِي يَحْفَظُهُ الْعَبْدُ وَيَشْرَحُهُ. لِيَتَفَهَّمَ مُرَادَ صَاحِبِهِ مِنْهُ.

الثَّانِي: التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ. فَإِنَّهَا تُوَصِّلُهُ إِلَى دَرَجَةِ الْمَحْبُوبِيَّةِ بَعْدَ الْمَحَبَّةِ.

الثَّالِثُ: دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ: بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ. فَنَصِيبُهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ عَلَى قَدْرِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا الذِّكْرِ.

الرَّابِعُ: إِيثَارُ مَحَابِّهِ عَلَى مَحَابِّكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَى، وَالتَّسَنُّمُ إِلَى مَحَابِّهِ، وَإِنْ صَعُبَ الْمُرْتَقَى.

الْخَامِسُ: مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمَعْرِفَتُهَا. وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَبَادِيهَا. فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ: أَحَبَّهُ لَا مَحَالَةَ. وَلِهَذَا كَانَتِ الْمُعَطِّلَةُ وَالْفِرْعَوْنِيَّةُ وَالْجَهْمِيَّةُ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ عَلَى الْقُلُوبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَحْبُوبِ.

السَّادِسُ: مُشَاهَدَةُ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَآلَائِهِ، وَنِعَمِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ. فَإِنَّهَا دَاعِيَةٌ إِلَى مَحَبَّتِهِ.

السَّابِعُ: وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِهَا، انْكِسَارُ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى. وَلَيْسَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ الْأَسْمَاءِ وَالْعِبَارَاتِ.

الثَّامِنُ: الْخَلْوَةُ بِهِ وَقْتَ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، لِمُنَاجَاتِهِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِهِ، وَالْوُقُوفِ بِالْقَلْبِ وَالتَّأَدُّبِ بِأَدَبِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ. ثُمَّ خَتْمِ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ.

التَّاسِعُ: مُجَالَسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَالْتِقَاطُ أَطَايِبِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ كَمَا يَنْتَقِي أَطَايِبَ الثَّمَرِ. وَلَا تَتَكَلَّمْ إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الْكَلَامِ، وَعَلِمْتَ أَنَّ فِيهِ مَزِيدًا لِحَالِكَ، وَمَنْفَعَةً لِغَيْرِكَ.

الْعَاشِرُ: مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[1].

<u>الثالث</u>: التوكل على الله عز وجل والاستعانة به ولذلك قال عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والاستعانة هي التوكل.

(١) مدارج السالكين (١٨/٣).

وكثير من الخلق يظن التوكل محصوراً بطلب الأمور الدنيوية بينما أولياء الله يتوكلون عليه في الإيمان به وطاعته وعبادته وهداية الطريق ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفي محابه وتنفيذ أوامره كما يتوكلون عليه في أمور معاشهم ودنياهم مع عمل الأسباب واليقين بما عند الله وحسن الظن به والعلم بصفاته التي توجب التوكل عليه عز وجل.

الرابع: الدعاء وهو من أعظم الوسائل التي تعين المرء على طاعة الله ولذا قال اله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وأمرنا بقراءة الفاتحة في كل صلاة لنطلبه عز وجل الهداية، بل إن الدعاء هو لب العبادة، وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ﵁ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ».

الخامس: العلم بدين الله الشرعي ومعرفة الأحكام الشرعية والحلال والحرام فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، وهو يشمل معرفة العقائد والأحكام في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها وما يجب على المسلم من واجبات وما يحرم عليه، وهذا الأمر يحقق احد شرطي القبول وهو المتابعة.

السادس: العلم بدين الله الجزائي المتضمن للثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، ويدخل في هذا معرفة ما يحدث في البرزخ وعند البعث والحساب والجنة والنار، ويمكن للمرء أن ينظر في هذا ما ذكره الله في كتابه عن القيامة والحساب والبعث والجزاء، وما ذكره رسوله ﷺ، ثم المؤلفات التي ألفت في هذا الباب.

السابع: النظر في سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين من عباد الله من الصحابة والتابعين والأئمة والعباد، وما كانوا عليه من الخوف من الله، ورجائه، وكثرة العبادة، وتنظر تراجم السلف في الكتب المصنفة في التراجم كسير أعلام النبلاء، وحلية الأولياء.

الثامن: النظر في قصر العمر مقابل الحياة الأخروية، وكيف أنه بقدر ما يعمل بطاعة الله؛ بقدر ما يزيد في النعيم ويرتفع في درجات الآخرة، وكيف أنه لا يمكنه الرجوع ليزيد في عمله، فالعمر محدود والحياة في الآخرة أبدية، والعاقل يبني ما سيكون له أبداً لا ما ينقطع، وقد قيل إن الحياة في الجنة وهي أبدية إنما كانت

جزاء لعمل في حياة مدودة؛ لأن المؤمن في نيته أنه لو عاش في الحياة أبداً لاستمر في طاعة الله، ونيته أبلغ من عمله، وهذا وإن كان ملحظاً حسناً إلا أن الأمر في هذا يعود إلى عظم فضل الله وجوده وكرمه، وإلا فلو قدر للمرء أن يعمل أبداً فهو لا يستحق كل هذا النعيم لولا رحمة الله عز وجل.

التاسع: النظر في نعم الله وآلائه على العبد والتفكر فيها والتي لا تعد ولا تحصى كما قال عز وجل: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾، فلينظر المرء في نعم الله عليه في جسده وليقابله بما يمكن أن يكون الشكر عليها:

فهذه حاسة البصر التي لا يقد نعمتها إلا من فقدها ولو قيل للأعمى صلِّ ألف ركعة ونرد إليك بصرك لفعل ذلك بل فعل ما هو أكثر.

ولو قيل لفاقد السمع والنطق مثل ذلك لفعل.

ثم ماذا يقابل نعمة العقل أيكفي أن تكون ألف ركعة أو آلاف الركعات.

ثم لينظر المرء في نعمة المشي بالقدمين والبطش باليدين والصحة في البدن ثم ينظر فيمن أصيب بالأمراض من إعاقة في العقل أو القدمين أو أمراض الجلد من البرص والجذام والبهاق ونحوها.

ثم كيف أصاب الله بأمراض السرطان والسكر ونحوها خلقاً لم يكن هو منهم.

ثم لينظر كيف أنعم الله عليه بالقدرة على الإنجاب وغيره عقيم.

ثم لينظر كيف ابتلى الله خلقاً بأولادهم في مرض في عقولهم أو أبدانهم وكيف هو قد أنعم الله عليه بأولاد سليمي البدن والعقل مكتملي الصحة.

ثم بعد ذلك كله كيف أنعم الله عليه بأعظم نعمة وأجلها وهي الإيمان به ومعرفة الإسلام فلم يكن يهودياً أو نصرانياً أو بوذياً أو هندوسياً أو غيرها من الملل.

ثم كيف أنعم الله عليه بنعمة الهداية إلى السنة فلم يكن رافضياً أو معتزلياً أو أشعرياً أو خارجياً أو صوفياً.

ثم بعد ذلك انعم الله عليه بالهداية إلى العمل الصالح وأداء الصلوات والصوم والزكاة والحج وغير ذلك دون غيره ممن حرمهم الله لذة طاعته والقرب منه.

لينظر المرء في كل ما سبق وغيره من النعم التي من الله بها عليه ثم ليقارن هل قام بشكرها؟ ثم لينظر عظم فضل الله وجوده وكرمه، فهو عز وجل مع كل هذه النعم يزيد من يشكره نعماً أخرى، فيقول عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ثم هو يتحبب إلى خلقه ويعينهم ويفرح بتوبتهم وييسر لهم سبل الهداية، فينزل الكتب، ويرسل الرسل، ويدلهم على أسباب الهداية، ويحذرهم من سبل الغواية، فلا إله إلا الله العظيم الجليل الحي القيوم الذي لا قيام للمخلوقات بدونه.

العاشر: مرافقة الصالحين الذين يعينون على طاعة الله، ويذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، وينصحون المقصر والمعرض عن الطاعة، أو المسرف في المعصية، ولذا جاء في حديث أبي موسى ﷺ في الصحيحين: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً».

خطر الإعراض عن أمر الله

ولقد رتب الله على الطاعة السعادة والفلاح والفوز في الدارين: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ **[الأحزاب:٧١]**، كما رتب على المعصية، من العقوبات الدنيوية والأخروية، ما لا يُعد ولا يحصى، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ **[الأحزاب:٣٦]**، ويقول عزَّ من قائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[النور:٦٣]**.

أي: فليحذر وليخشى من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً أن تصيبهم فتنةٌ في قلوبهم، من كفرٍ أو فسقٍ أو نفاق أو بدعة، أو يصيبهم عذابٌ أليم في الدنيا وفي الآخرة.

وأعظم عقوبة تصيب من خالف أمر الله وأمر رسوله، وأصر على المعاصي والمنكرات، أن يحال بينه وبين الإيمان الصحيح، وبينه وبين العقيدة السليمة، والطريق المستقيم، ويبتلى بزيغ القلب، وتلبيس الشيطان

وأعوانه، فيرى سوء عمله حسناً وقبيحه صحيحاً، ولا يزال على ذلك متعصباً له، مجادلاً فيه، مدافعاً عنه، حتى يموت عليه، ويبتلى بسوء الخاتمة -عياذاً بالله من شديد غضبه، وأليم عقابه- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ **[الصف:٥]**، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ **[الأنعام:١١٠]**.

أما العقوبات المالية والبدنية لمن خالف شرع الله، وسنة رسوله، وقد أخبر الله عنها في كتابه، مما جرى للأمم المكذبة لرسله، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ **[العنكبوت:٤٠]**.

مبادرة الصحابة لامتثال أمر الله

عباد الله! اتقوا الله وبادروا بامتثال أوامر الله ورسوله، أسوةً بصحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا يسارعون إلى امتثال الأوامر حينما يسمعونها ولا يؤخرون ذلك.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فأصغِ لها سمعك، فإنه خير تأمر به، أو شرٌ تنهى عنه".

ولما نزل قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ **[البقرة:١٤٤]**، امتثل الصحابة للأمر، فتوجهوا قِبَلَ الكعبة وهم في الصلاة.

ولما نزلت آية الحجاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ **[الأحزاب:٥٩]**، بادر نساء الأنصار فشققن مروطهن، والتحفنَ بها امتثالاً لأمر الله ورسوله.

ولما نزلت آية تحريم الخمر، التي ختمها الله عز وجل بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ **[المائدة:٩١]**، قال الصحابة رضي الله عنهم: "انتهينا انتهينا"، حتى رمى الإناء من رفعه إلى فيه، وأهرقها الصحابة حتى قيل: إنها جرت في سكك المدينة والحوادث والوقائع في الامتثال والمبادرة من هذا الجيل المثالي كثيرةٌ جداً.

حال المسلمين مع أوامر الله

فأين نحن أيها المسلمون؟! أين نحن من أوامر الله ورسوله؟!

لقد وصل الأمر بكثيرٍ من الناس، أن اتخذ أوامر الله ورسوله وراءه ظهرياً، فكثيراً ما تبلغنا أوامر الله ورسوله بطرقٍ متعددة، ووسائل متنوعة، ولكن أين الامتثال وأين أثرها فينا؟!

فهلا غيّرنا من واقعنا؟! وهلا عدّلنا من سلوكنا؟! وهلا اتجهنا إلى العمل الصالح وتزودنا من الطاعات؟!

إن الكثير منا بعكس ذلك، باقٍ على غيه، منساقٌ مع شهواته، مطاوعٌ لنفسه وهواه، تمر عليه الأوامر الإلهية، والسنن النبوية، فلا يرفع بها رأساً، ولا يحرك حولها ساكناً، وكأنها لا تعنيه، هذا هو واقع الكثير منا، رجالاً ونساءً، شباباً وشيباً -إلا من رحم الله- حتى جرَّ هذا الواقع المؤلم، تفشي الجهل بدين الله بين المسلمين أنفسهم، وفقدان الغيرة على دين الله، وانتشار العقائد والأعمال المخالفة لشرع الله، وسنة رسول الله ﷺ، وحتى عمَّ التهاون بالصلاة، وألفه كثيرٌ من مرضى القلوب، وانتشر الكسب الحرام، كأنما هو من الطيبات، وأصبح الفساد والمنكر على اختلاف وسائله، وتعدد طرقه، أمراً مباحاً، مستساغاً عند كثيرٍ من الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **[الأنفال: ٢٤ – ٢٥]**.

الخاتمة

إنّ للإيمانِ حلاوةً في القلب، وإنَّ للطاعةِ لذةً لا يشعرُ بها إلا من وفَّقَهُ الله ثم اتخذ الأسباب التي تحصل بها هذه الحلاوةِ وهذه اللذّةَ، فإذا شَعر بها اجتهد أكثر في أداءِ الطاعاتِ وتنفيذِ الواجباتِ وتركِ المنهياتِ، وستكونُ الطاعةُ يسيرةً وسهلةً بفضل هذه اللذّةِ والحلاوةِ.

فكلما زاد الإيمان وقويَ، كلما شعر المسلم بحلاوة الإيمان ووجد لذّة الطاعة، وكلما زادت محبته لربه وخالقه كلما زادت حلاوة الإيمان عنده.

فإذا سلك العبدُ أسبابَ الرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً، ذاق طعم الإيمانِ ووجد حلاوةَ الطاعةِ.

يقول ابن القيم رحمه الله: "إنَّ للسيئةِ سواداً في الوجهِ وظلمةً في القلبِ ووهناً في البدنِ، وبُغضاً في قلوب الخلق، ونقصاناً في الرزق، وإنَّ للحسنةِ ضياءً في الوجه ونوراً في القلب وسعةً في الرزق ومحبَّةً في قلوب الخلْقِ"(١).

نسألُ الله تعالى أن يرزقنا وإياكم حلاوةَ الإيمان ولذّةَ الطاعة.

اللهم أسعدنا بطاعتك، وارزقنا من فضلك، واجعل لنا من كل ضيق مخرجاً.

اللهم أسعدنا بطاعتك، وارزقنا القناعة برزقك وعطائك، وأدم علينا نعمك الظاهرة والباطنة، واجعلها عونًا لنا على طاعتك.

اللهم اجعلنا نخشاك وكأنا نراك أبداً حتى نلقاك، وأسعدنا بتقواك، ولا تشقنا بمعصيتك.

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، وحسن الظن وحسن الخلق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) الجواب الكافي (صـ٥٨).